

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الكتيبة الأدبية - ديباطة للنصرة - اكلوا عين
الزمان بمرود الحياة - يابل يامين ، ثم يابل
يامين ، وللاستاذ فكرى أباطة أن يقول ما يشاء !

الكتيبة الأدبية

في اليوم الثالث من شهر بونية قدّمتُ إلى وزير المعارف
للسابق معالي القرائي باشا اقتراحاً أدعوه فيه إلى تأليف « كتيبة
أدبية » من رجال المعارف يتطوع فيها للدرسون والمفتشون ،
وتكون مهمتهم تقوية الروح القومي وحراسة النزعة الوطنية
من عدوان الأراجيف ، بما ينشرون على صفحات الجرائد
والمجلات ، وما يذيعون من خطب ومحاضرات . ثم قلت :
« ولي مطبوع أوجه إليك : وهو أن تدعو رجال الأقاليم
من وقت إلى وقت ، لتشير عليهم بما تراه في تسديد التزام
الوطنية ، ولتشرم بأن الدعوة ترى أن القلم من أدوات الجهاد »
وقد أشّر القرائي باشا على هذا الاقتراح بمباراة كريمة
من عبارات التأييد والتشجيع

ومضيت أفكر في تكوين تلك الكتيبة على مهل ، ولكني
سارعت ففتشت في المقطع والأهرام مقالات حماسية في نطاق
النرض الذي دعوت إليه ، راجياً أن يكون في ذلك تمهيد لتكوين
« الكتيبة الأدبية » وتذكير لأهل الأدب بواجبهم في هذا الميدان
في الأسبوع الماضي وجه الأستاذ أحمد أمين دعوة إلى
الكتاب على صفحات « الأهرام » يقول فيها إنه يرجو من
أرباب الأقاليم أن يتناولوا بعض المشكلات الحاضرة بالدرس
فيتحدثوا عن الهجرة إلى الريف ، وتنظيم الشؤون الاقتصادية
بما يضمن السلامة من التقلبات التي تحدثها الحرب ، إلى آخر
ما نص عليه من المسائل التي تستوجب الدرس ، فردت عليه
الدكتور طه حسين في اليوم التالي بمقال صرح فيه بأن الجرائد
تحت رقابة الأحكام العرفية ، وأن الكاتب لا يملك من الحرية
ما يساعد على درس تلك المشكلات بصراحة ، وعدت للسكوت
تضحية ! فمجب الأستاذ توفيق الحكيم من ذلك وكتب يقول :

إنه لم يكن يعرف قبل اليوم أن السكوت من التضحيات . فوخزه
الدكتور طه وخزة ألمة جاء فيها أنه يدعو إلى الأدب الرخيص
في حين أن الأستاذ أحمد أمين كان يدعو إلى الأدب الثمين !
وازعج الأستاذ توفيق الحكيم فكتب يرجو الدكتور طه أن يعد
للكتاب في تقوية الروح الوطني من الأدب الرفيع ، لأنها على
كل حال مما يدعو إليه الواجب في هذه الظروف !
أولئك كتابنا الأماجد ، وهم قوم يمزحون في غير
أوقات المزاح !

فالأستاذ أحمد أمين في يده مجلة أسبوعية وكان يقدر على
معالجة تلك الشؤون منذ اليوم التي نصب فيه غير الحرب ، وقد
كان مفهومها أن الحرب لن تترك مصر بلا إنداء ، فوالذي قهره
على السكوت إلى اليوم ، إلا أن يكون تذكر فجأة أن الدنيا فيها
أشياء غير الحديث عن أدب المدة وأدب الروح

وأحمد أمين النيبور على الريف هو نفسه أحمد أمين التي
صرح في إحدى مقالاته بأن الموت بالقتال في القاهرة أفضل
من الموت بالميكروبات في الريف ، وذلك إيماء أقيم سيأتي عليه
« أطيب الجزاء » بعد حين

أفي الحق أن الريف ليس فيه غير الميكروبات ؟ وكيف أمكن
إذاً أن تبيض كل تلك الخلائق في الريف ؟ وكيف جاش أبؤنا
وأجدادنا جميع تلك المصور الطوال ؟

تلك وسوسة سخيفة لا تبلبل غير المتعذقين . ولو أنصف
أحمد أمين نفسه وقلمه لقال إننا فرطنا كثيراً في حق الريف ،
ومن الواجب أن ننهر هذه القرصة لندرج إليه بالتحسين والتجميل ،
عماه يسينا ما تعودناه من القرار الراكد في الحواضر أيام الصيف
والدكتور طه حسين أمره بحجب : فهو يدعي أن الرقابة
لا تسمح له بشيء ، ويدافع عن كمله بأن البرلمان يلجأ في بعض
الأحيان إلى عقد جلسات سرية ، فمن حقه أن ينتظر إلى أن تنتهي
الحرب ويستطيع الكتاب أن يقولوا ما يشاءون !

ومن الذي يضطر الدكتور طه إلى الوقوف عند درس
المسائل التي لا يعرض لها البرلمان إلا في جلسات سرية ؟
أنكون كل مشكلاتنا القومية من اقتصادية واجتماعية وسياسية
مشكلات لا يتحدث عنها للناس إلا في الخفاء ؟
أيؤمن الدكتور طه بأن من المحرم عليه أن يتحدث في
الشؤون التي تصور مستقبلنا بين أم الشرق وأم الغرب ؟

أستعد أن الحديث عما تقترض لمر من المصادر الاجتماعية والاقتصادية بعد الحرب أمر قد يستوجب الوقوف أمام المحكمة العسكرية؟

وما هذا الذى يدعيه الدكتور طه حين يقول بأن الكتابة فى تقوية الروح الوطنى من الأدب الرخيص؟ ومن الذى أوحى إليه هذه الحكمة « اللغالية »؟ وعن أخذ القول بأن الحديث فى تقوية الروح الوطنى هو المقصود بالحديث للماد الذى نهى عنه الحكماء؟ لقد دافع توفيق الحكيم عن هذه القضية، ولكن توفيق الحكيم رجل قصير نمجول ولا يقدر أبداً على صد غارات طه حسين للدكتور طه أن ينسحب من الميدان بحجة أنه مشغول بشواغل أدبية تصرفه عن الحرب وأخبار الحرب وما يجب على مصر أيام الحرب. ولو قال ذلك لكان له عندنا مقبول، فالسولة تطالب كل رجل بالتفرغ لما يصلح له من الأعمال، والأدب الذى يشغل بالأدب التصرف أيام الحرب هو أيضاً من المجاهدين، لأن الجهاد فى سبيل الوطن له ميادين مختلفات، منها ميدان الأدب التصرف الذى ينسى صاحبه أنه يعيش فى غمرات الحرب. وقد اتفق للدكتور طه فى أحيان كثيرة أن يتنامى للكاره القومية ليتفرغ لعمه الأدبى بجامعة المصرية، فالألم على ذلك لأنهم، ولا أهمه أحد بلجبن من الاستجابة لنداء الواجب الوطنى، لأن الوطن يعرف أن للتفرغ للأدب التصرف هو أيضاً جندي فى الميدان، وإن لم يحمل السلاح ويقدم للقتال ولكن الدكتور طه بأبى إلا أن يقع فى خطيئتين: خطيئة الدعوة إلى السكوت عن درس المشكلات القومية إلى أن تنتهى الحرب، وخطيئة السخريه من الكتابة فى تقوية الروح الوطنى بحجة أنها من الأدب الرخيص!

ألا يفتح الله عليك مرة واحدة يا دكتور طه فتكتب مقالاً واحداً يسلم من إثم المبالغة والتليس؟ بقيت حكاية توفيق الحكيم، الكاتب الذى يجمع بين الظرف والضعف، وأنا أقترح أن يمحو اسم هذا الكاتب من سجل الوطنى للمصرية هذا كاتب خفيف الروح فى بعض نواحيه، ولكن روحه يتفعل جداً حين يتعامل على القومية للمصرية، وحين يتوهم أنه من الصالحين، ومن خلفاء ظم أمين!

وما ظنكم بكاتب يزعم أن التفكير لا يساوره فى مصر،

وإنما يساوره حين ينتقل إلى المضاب السويسرية أو الفرنسية؟
المغو، يا سيد الملاح!

قصر يا أخى فيها منادح للفكر والبيان، وهى بشهادتك قد عزت على عدوان الغرب ووطنيان الشرق، وقد مجزت المصائب والويلات عن قتل مواهبها الذاتية، فكيف يجوز لك أن تدخر منها أتبع السخريه فى بعض مؤلفاتك وأنت تنجز عن الرد على كاتب مثل طه حسين؟

أما بعد فأنا ما زلت أدعو إلى تأليف كتيبة أدبية مجردة ألسنها وأقلامها لتقوية الروح الوطنى لتحويل الوطنية إلى عقيدة راسخة لا تزغرها للتوازل والخطوب

وفى الأدب التصرف نفسه يتسع المجال لتأييد العقيدة الوطنية، فالتشاعر الذى يتشقى بجمال الليل حين يتموج نور القمر فوق صفحات الليل هو شاعر وطنى؛ والكاتب الذى يتألق فى وصف ملاعب القاهرة والإسكندرية ودمياط هو كاتب وطنى. والباحث الذى لا يمتنيه غير درس مشكلات التعليم هو باحث وطنى. واللاعب الذى يقضى أوقاته فى التناهب للاشتراك فى مباراة رياضية هو لاعب وطنى. والتاجر الذى يفتلق أذنيه عن الحوادث اليومية ليتفرغ لمصاعبه التجارية هو تاجر وطنى. وطه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم يستطيعون أن يكونوا من الوطنيين إذا قصروا جهودهم على ما يحسنون من الأعمال

المهم يا بنى آدم أن تماونوا على إيقاظ الروح الوطنى فى أية ناحية من نواحيه، وأن يكون لكم شأن فى تحرير البلاد من قيود الركون والجمود

دمياط والنصرة

وهتف سائل يقول: ما الذى أوجب أن نرى فى مؤلفاتك ومقالاتك إشارات رقيقة إلى دمياط؟

وأجيب بأنى لم أزر دمياط إلى اليوم، ولكننى مؤكل بالحديث عن البقاع الكريمة من وطنى، فدمياط من ثغورنا للبواسم وكان لها مقام محمود فى صد اللغزات الصليبية. وما تزال دمياط مرجع طوائف كثيرة من كرائم الأفتنة والقلوب، ولن أنسى أبداً طينان البحر والنيل حول دمياط حيث غرق الروح للشغاف الذى أوحى إلى خاطرى بعض القصائد الجياد وأخوها الزيات يقيم اليوم بالنصرة ليقى اللغزات الجوية،

لا تصدقوا الأستاذ فكري أباطة حين يحدتكم في الذبايح عن
عجبه من أن تعجز أحوام الحرب عن قتل تفريده « يا ليل يا عين »
فهذا الأستاذ نفسه لم ينقطع عن الفناء وإن كان صوته « أرخم »
الأسوات !

هذه الحرب التي تمانون بلاءها من قرب أو من بعد هي أيضاً
شهوة إنسانية أو حيوانية كسائر الشهوات ، والمحرومون من
حب الدنيا ومن الهيام بما فيها من نعيم لا يصلحون أبداً للتمرس
بالمخاطر في ميادين القتال

يجب أن تبقى حواسكم كلها سليمة ، حتى حاسة الدوق وحاسة
الجمال ، لأن هذه الحواس هي « الجوارح » التي تصولون بها
في ميدان الوجود . وهل يصلح إنسان للتفكير في المنافع القومية
حين يُشغل تفكيره في المنافع الذاتية ؟

الجندي لا يصلح أبداً للاستماتة في الدفاع عن الوطن إلا إذا
كانت له فيه مآرب وأهواء ، أما الجندي القارغ الرأس والقلب
من المطالب الذاتية فهو أداة عاطلة لا نفع فيها ولا غناء

زادكم الأول هو مطامعكم ، وزادكم الثاني هو مطامعكم ،
وزادكم الثالث هو مطامعكم ، وأزوادكم الأصلية والقرهية هي
مطامعكم ، فلا تمشوا في دنياكم بلا أطامع لثلاث تندم قدرتكم
على الجهاد

لا تصدقوا الدين يهونكم عن الإبتسام للدنيا والوجود
لا تصدقوا من يزعمون أن سرح النفوس في أيام الحرب
من نذر الفناء

الدنيا لكم ولسائر الزوادين بالحيوية والأريحية والجدل
والإبتهاج

فما سكوتُ الشعراء وما سكوتُ المثمنين عن التفريد فوق
أفنان الجبال ؟ وما الموجب للدعوة الأتيمة التي تريد أن تحول
دنيانا إلى ملاطم ومناحات ؟

عزائمكم وأرواحكم وقلوبكم هي الذخائر الباقية ، وهي
أسلحتكم في مقارعة الخطوب ، فلا تضيعوها بإسراع الأراجيف ،
ولا توهنها بالخضوع لخداع الأباطيل

وداً أعداؤكم لو تنقلبون إلى أشباح بلاهواطف ولا أحاسيس
فاحذروا الفتنة ، فتنة الدعوة إلى تسريح الأمانى والآمال
واعلموا أن الرجل الحق هو الذي يعيش في كل وقت
بعواطف الأقطاب من الأحياء . زكى مبارك

وأنا والله في خوف عليه ، وما أخاف الميكروبات التي يخافها
أحمد أمين ، وإنما أخاف على الزيات غارات للميون ، للميون
للفواتك التي تصاول الآمنين والناقلين ، فتحوّل أرواحهم
إلى أقباس أفسى وأعتف من طفيان للسير

وكيف يدوق العذاب من ترجمه المقادير فلا تده على الطريق
إلى المنصورة أو دمياط ؟

إرجع إلينا ، يا أحمد ، قبل أن تمضك سمكة من سمكات
النهر الذي أعرف وتعرف ، وإلا فانتظر قدومي إليك لأشاطرك
للشوة بفناء اللآحين في غفوات الليل

ولكن هل عندكم ملاح تذكر أغاريدته بأغاريد الملاح الذي
سمته مرة وهو يصدح فوق متن النيل في الأصر بهذا التشيد :

فايت على جسر النيل

قآبلوني اثنين حلون

آخذيين وأسبب مين ، يا بوى !

وحدثتنا الجرائد بأن النيل يهدر بعنف في أعالي الوردان ،
فانتظرن عندك لأرى مملك بعد شهر واحد كيف يسهل صيد
السمك فوق ذلك الشط بأيسر عناء

أتحاف الحرب ؟ لا تخف ، فأعمار الأشقياء باقية ،
وإن عشنا فسنغنى ببقية للعمر في التفريد فوق أفنان الجبال
إرجع إلينا يا أحمد ، قبل أن تمضك السمكات بشط المنصورة
قد عرفت بالتجربة أنها أفتك من سمكات شط العرب . حرّسك
الله وحمّاك !

أمن الأئم متاف بالجمال في بلاد كل ما فيها جميل
لو بعيني نظر اللاحي وجمال رأى الفتنة في كل سبيل

اكلوا عين الزمانه بمرود الحياة

أنتم تسمون أن الدنيا كلها في حرب ، أليس كذلك ؟
بلى ! ولكن الحياة لها مطالب روحية وعقلية تنسى للناس
أحياناً مخاطر الحرب ، والرجل الضعيف هو الذي تنهزه الظروف
على أن يكون ريشة في سبب الخطوب . أما الرجل القوي فتصطمم
به المصائب كما تصطمم للوجة العالية بالصخرة العانية

لقد قترت عين الزمان فاكلوها بمرود الحياة ... كونوا
أحياء في كل وقت ، واحذروا أقوال اللرجفين الذين يزعمون أن
الدنيا لم يبق فيها مجال للطرب الأفتنة ومجوح للقلوب